صاحب العرفان

الامام شرف الدين

وفاته ؛ موكبه ؛ أسبوعه

زارنا رحمه الله في صيدا منذ شهرين ونصف تقريبا رغم عجزه وشيخوخته وقال إنما جئت لأودعكم الوداع الأخير فلا تنسونا من أدعيتكم ، وكانت ساعة رهيبة ، وكأنه عرف نفسه واستبق أجله . وزرناه بعد ذلك مراراً في صور وكان تعبا جسميا لكنه في عقله المفكّر وذهنه النيِّر، لا يكل ولا يمل من الكتابة والمطالعة . وهـذا شأن الأبطال الذين ينذرون أنفسهم للعلم ، للنفع العـام ، لهدي الناس وإرشادهم ، ومنذ شهر تقريبا نقل إلى مستشفى « أوتيل ديو » وكان قد أصابه « كريب » ولكن تبعه اشتراكات في الجسم والرئة ، ممـا أوجب الخطر على حياته الغالية إلى أن كان صباح الاثنين في ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ الموافق ٣٠ كانون الأول سنة ١٩٥٧ الساعة الخامسة والنصف صباحا فإذا بالقلوب واجفة والنفوس باهتة ، وإذا بالدموع تتلاقى بالدموع واللوعـة والأسى يعمان الجميع ، الكبير والصغير ، الغني والفقير ، لقد نعى الناعي الإمام المجتهد الأكبر السيد عبد الحسين شرف الذي ملأ دنيا العروبة والإسلام فضلا وعلما وأثراً .

يا لهول المصيبة ويا لعظم الفاجعة ، لقد هوى العملاق بعد روعة الإشراق ، لقد غاب عنا بابتسامته العذبة وإشراقته الوضاءة ، فهل يغيب عنا ذكره وأثره ؟ وهل نردد مع الشاعر :

ترفق بدمعك لا تضنه   فبين يديك بكاء طويل

لا وإنما نقول :

إن يغض نبع دمعكم بعد سحٍ   فاشفعوا الدمع بالفؤاد مذابا

نعته الطائفة الإسلامية الشيعية إلى العالمين العربي والإسلامي ، وجلس عطوفة الرئيس الأستاذ عادل عسيران وصاحب العرفان وأنجال الفقيد وآل بيضون يتقبلون التعازي بالفقيد الراحل في بهو الكلية العاملية فأقبل الناس زرافات ووحدانا من جميع الطوائف للتعزية ، وفي مقدمتهم فخامة رئيس الجمهورية ودولة رئيس الوزارة والعلماء والوزراء والنواب وجميع أفراد الشعب . وفي الساعة الثامنة مساء نعته الإذاعة اللبنانية بالكلمة الآتية :

نعي إلينا سماحة المجتهد الأكبر الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين مرجع الطائفة الشيعية الإسلامية ، قبضه الله تعالى إلى رضوانه عـن عمر قارب التسعين قضاه في الكفاح

والجهاد لخدمة الدين والعلم والوطن .

لقد نذر الفقيد الكبير نفسه طوال حياته لنشر فضائل الدين وتعاليمه الكريمة في مؤلفاته الكثيرة القيمة التي عبرت عن مختلف وجوه الحق والعدالة والمحبة بين الطوائف وكانت هذه المؤلفات مرجعا ولسانا لكل من ينشدهذه المثل العليا السامية في البلاد العربية والإسلامية .

كان الفقيد الكبير ينهض بأعباء الدعوة للخير ووحدة الكلمة وإصلاح حياة الناس سواء في قضائه أم في جهاده الديني والاجتماعي أم في دروسه العلمية التي كان يدأب دون انقطاع في بذل الجهد لها من راحته وعافيته أم في إحياء مشاريع العلم التي ترفع ظلمة الجهالة وتهدي



فريق من العلماء يحيطون بالنعش حين خروجه من المستشفى (أوتيل ديو)

من اليمين إلى اليسار : الشيخ حسين الخطيب رئيس المحكمة الجعفرية العليا ، صاحب العرفان، السيد محمد حسن فضل الله ، السيد حسين الحسيني مفتي جبل لبنان ، الشيخ محمد جواد مغنية مستشار المحكمة الجعفرية العليا وغيرهم ممن لم تظهر صورهم بوضوح

إلى سواء السبيل . ومن مآثره الخالدة ذلك الصرح العلمي الكبير الذي أنفق من عمره المبارك سنوات لتشييده وترسيخ مكانته في جزء من الوطن العزيز ، نعني به الكلية الجعفرية التي أعانت كثيراً من المواطنين المعوزين على تلقي العلم والتهذيب . ومن مآثره الخالدة مواقفه الوطنية المشهودة وصرخاته الإصلاحية في تعزيز كلمة الوطن وصيانة استقلاله وتوحيد صفوفه حتى ذهب صيته في البلاد العربية والإسلامية عامة ، وكانت له الكلمة المسموعة لدى جميع الفئات العليا في شؤون الدين والعلم والإصلاح . وسينقل جثمان الفقيد صباح اليوم بالطائرة إلى العراق ليودع إلى جانب مدافن الأئمة في النجف الأشرف .

وكان فقيدنا عليه الرحمة قد أوصى أن يدفن بالنجف الاشرف بجوار جده أمير المؤمنين عليه السلام الإمام علي بن أبي طالب ، وفي صباح يوم الثلاثاء كان موعد نقل الجثمان من المستشفى إلى المطار والمسافة سبعة كيلومترات ، وقد احتشد جمهور غفير أمام المستشفى منذ الساعة السابعة صباحاً ، وفي الساعة الثامنة والنصف خرج الموكب من المستشفى يتقدمه العلماء والوزراء ورجال السلك السياسي ، وكان البكاء بالغاً عنان السماء ، وكان الموكب لا يدرك الطرف آخره . وفي الساعة الحادية عشرة وصل الجميع إلى المطار وسارت الطائرة إلى العراق الساعة الحادية عشرة والثلث ، وقد رافق الجثمان : صاحب العرفان والسيد نور الدين شرف الدين والسيد عباس أبو الحسن والسيد جعفر شرف الدين والسيد يوسف شرف الدين والحاج ابراهيم زين عاصي والشيخ علي اسماعيل والشيخ محمد عقيل وابراهيم الحاج أسعد

وكانت جميع الهيئات والجمعيات في النجف الأشرف قد نعت الفقيد إلى العراقيين وقد نعته جمعية منتدى النشر بما يلي : بسم الله الرحمن الرحيم

تنعى جمعية منتدى النشر . ببالغ اللوعة وعظيم الاسف علم الامة الشامخ وحصنها المنيع سماحة حجة الاسلام آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين الذي كان وحده جيشا مرابطا في ثغور الإسلام .

فقد استأثرت به رحمة الله في لبنان بعد أن ناهز التسعين عاما قضاها في جهاد مستمر ونضال منقطع النظير . وهو حين يلقي بسلاحه على عتبات القدر بعد هذا العمر المديد فإنما يلقيه بعد أن بلغ في جهاده بأمته أوج ما ينتظر لها من نصر .

وما آثاره الخالدة التي تركها في مختلف ميادين الجهاد سواءاً في مجالات الذب عن المبدأ والعقيدة بقلمه الشريف كـ (المراجعات) و (الفصول المهمة) و (النص والاجتهاد) وغيرها أم في مجالات مناهضة المستعمرين دفاعا عن حوزة الإسلام بلسانه البليغ وسنانه النافذ وبما وضع للتعليم من مناهج طبقها في كليته الجعفرية

والجمعية إذ تبكيه فإنما تبكي فيه ، بالإضافة إلى خسارتها العامة ، خسارتها الخاصة به حيث كان رحمه الله من أهم الموجهين لفكرتها الاصلاحية والمباركين لحركتها الثقافية بما كان يخصها من محاضراته القيمة في مواسم (المجمع الثقافي) .

سارت الطيارة في الجثمان والمرافقين الساعة الحادية عشرة و ٢٠ دقيقة قبل ظهر يوم الثلاثاء ٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ ٣١ كانون الأول سبتمبر سنة ١٩٥٧ وهي من شركة (ليا) التابعة لشركة الشرق الأوسط والطائرة بأربعة محركات وقد بلغنا بغداد الساعة الثانية بعد الظهر فرأينا جمعاً لا بأس به ينتظر الجثمان وكان تفرق قسم منه لأن موعد وصول الطائرة الظهر فتأخرت كثيراً وحمل الجمع المحتشد التابوت بالتهليل والتكبير والأناشيد الشعبية المؤثرة وقد رأينا بين الجمع أربعة جاءوا من النجف الأشرف لاستقبال الجثمان وهم فضيلة الخطيب السيد جواد شبر والعلامة السيد محمد تقي الحكيم وفضيلة الأديب السيد هادي فياض وشيخ هندي فاضل وأصروا أن نكون معهم في سيارتهم وكانوا يحيطوننا بكل عناية ورعاية في الطريق وفي النجف

وسلم وفد بغداد لوفد الكاظمية التابوت بعد مسير زهاء ساعة مشياً على الأقدام وسار وفد الكاظمية وأمامه فريق من الشباب المثقف ينشد الأناشيد العربية الفصيحة بنظام وترتيب وهناك غسل الجثمان الطاهر وبعد وداع الوفد ومسير فريق من الكاظميين والبغداديين صحبة الجثمان اعتلينا السيارات وسرنا وباسم الله مسرانا نحو كربلاء فبلغنا المسيب الساعة الحادية عشرة ليلا حيث استقبلنا وفد كبير من أهل المسيب ومعهم العلماء والوجهاء والأضواء الكهربائية المشعة فساروا طويلا بعد ما حملوا الجثمان على الأكف منشدين الأناشيد الشعبية ثم سرنا بالسيارات فبلغنا كربلاء الساعة الثانية بعد نصف الليل ونزلنا في دار رئيس الخدم السيد السعيد

وبعد تناول الشاي جئنا والسيد عباس أبو الحسن لننام في الفندق فأصر علينا كل الإصرار المهندس السيد أشيقر أن نبيت في داره العامرة فلم نر مناصاً من إجابة طلبه وقد أوجد لنا كل أسباب الراحة والغرفة التي بتنا فيها محاطة بمكتبة حافلة بالكتب العصرية ففيها جميع مؤلفات الدكتور طه حسين وغيره من المؤلفين العصريين وهي مرتبة ترتيباً أنيقاً

وفي اليوم التالي أي الأربعاء أول كانون الثاني سنة ١٩٥٨ الجديدة أوصلنا بسيارته لمحل إيداع الجثمان والمسير به من الجموع المحتشدة التي يفوق عددها عشرة آلاف مشيع وبينهم متصرف كربلاء السيد مشكور أبو طبيخ وقنصل إيران وغيرهما من العلماء والوجهاء والأعيان وقد أقفلت كربلاء جميع حوانيتها فلم تكن تر حانوتاً مفتوحا وكان النشيد وراء الجثمان

بالفارسية لأن سكان كربلاء بين فرس وبين من يحسنون الفارسية وكان النشيد مؤثراً جداً

وبعد مسير ساعة مشيا على الأقدام في جمع حافل جداً امتطينا السيارات وما بلغنا خان النصف وهو نصف الطريق بين كربلاء والنجف حتى وجدنا جمعا غفيراً من العامليين والنجفيين جاءوا للاستقبال وبتنا كلما تقدمنا قليلا نرى الوفود إثر الوفود وبينهم وفد من الحلة يتقدمه الشيخ محمد سماكه عالم الحلة والحاج عبدالرزاق مرجان المثري المحسن الشهير وولده الصغير والحاج عبد الرزاق والد رئيس الوزارة العراقية الحالي

وخرجت الوفود النجفية لمسافة نصف ساعة عن النجف بالتهليل والتكبير والأنـاشيد الشعبية المؤثرة وخرج العلماء الأعلام المراجع وهم السيد محسن الحكيم والسيد حسين الحمامي والشيخ عبد الكريم الزنجاني والسيد أبو القاسم الخوئي والشيخ مرتضى آل ياسين وغـيرهم كثيرون جداً والنجف عبارة عن علماء وطلاب علم أما المرجع الكبير السيد عبد الهادي فهو كفيف البصر ومع ذلك كان مريضا عافاه الله وما بلغنا الحضرة العلوية إلا بعد الغروب بعد سيرزهاء ساعتين مشيا على الأقدام وشاهدنا هناك بين الجمع المحتشد كثيراً العلماء يتقدمهم المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم وبعد الصلاة على الجثمان الطاهر دفن في غرفة من غرف الحضرة مودعا بالعبرات والحسرات والأسف الشديد على عالم هيهات أن تجتمع بأحدما اجتمع بشخصه الكريم

هيهات أن يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لضنين

وأقيمت الفواتح وفي طليعتها فاتحة آل ياسين وآل الصدر فكانت فاتحة عظيمة جمعت فأوعت وفي اليوم الثالث جاءت محلة المشراق وهي أكبر محلة في النجف ضاقت بأهلـها فسحات جامع الخضرا الرحيبة وخارجه والطرقات المؤدية له واعتلى المنبر فاضل الرادود فألقى قصيداً زجليا من أحسن ما قيل وهي ليست له لكن لشاعر آخر أما هو فقـد كان موقفه وإشاراته وإنشاده كلها تدل على أنه خطيب مفوه وقد تخلص من الرثاء لذكر الوفد الذي صحب الجثمان وفي مقدمتهم صاحب العرفان

ولا تسل عما أحاطنا به النجفيون والعامليون من الرعاية والعـناية والدعوة لولائمهم السخية ومنهم السيد محمد تقي الحكيم والسيد حسين مكي والسيد جواد شبر والحاج جعفر الدجيلي والشيخ جعفر آل صادق وغيرهم وغيرهم

وكان نزولنا في النجف في دار الشيخ عبد الحليم كاشف الغطاء نجل الإمـام الكبير المغفور له الشيخ محمد الحسين الذي كان يقرن اسمه غالبا باسم السيد الراحل لما بينهما من اجتماع في كثير من الصفات وودعنا النجف ونحن نحنّ للإقامة بها طويلا لما فيها من روحانية

وندوات علمية وأدبية .

وأقام الفاتحة المراجع الأعلام السيد محسن الحكيم في مسجد العمران والسيد عبد الهادي في مسجد الشيخ مرتضى الأنصاري أشاد بها الخطيب الإيراني الشهير الشيخ مرتضى الأنصاري بما كان للسيد من صفات يندر أن تجتمع لغيره والخطاب بالفارسية لكن تخلله كلمات واستشهادات عربية كثيرة وكذلك أقام السيد حسين الحمامي فاتحة والسيد أبو القاسم الخوئي الخ

وفارقنا النجف بعد الغروب بطريق الحلة وبلغنا الكاظمية نصف الليل حيث بتنا بدار السيد محمد رضا شرف الدين نجل الفقيد الغالي . وبعدها بتنا ليلتين في دار الدكتور عبدالغني الكاظمي حيث لقينا من عنايته ولطفه وعناية ولطف قرينته السيدة عائدة شاهين ما يعجز القلم عن وصفه وداره هذه في كرادة مريم التي أصبح بها قصور ودور الوزراء والعظماء وأهل الثراء

وزرنا في بغداد معالي وزير المعارف الدكتور عبد الحميد كاظم الذي شاهدنا من لطفه وكرم أخلاقه وكذلك من نجيه ومعاونيه ما يعجز عنه الوصف وكذلك رأينا من مدير الدعاية والنشر الزعيم الركن السيد محسن محمد علي ما أعجبنا به غاية الإعجاب ولكن هناك كتاب ومعاونون يحاسبون على الصغيرة والكبيرة ويقرأون العرفان حرفاً حرفاً ويعلمون على ما يرونه مخالفاً للسياسة العراقية بنظرهم ! بالقلم الأحمر ولله في خلقه شؤون

وكنا نحضر فاتحة آل الصدر التي أقيمت ثلاثة أيام بلياليها في مرقد السيد المرتضى علم الهدى ولم يبق أحد في بغداد والكاظمية إلا وحضرها وكانت تلاوة الذكر الحكيم متتابعة بها وأحياناً تتلى الخطب والقصائد وكان آل الفقيد وفي طليعتهم السيد علي الصدر وأبناؤه النجباء والعين السيد محمد صادق الصدر يستقبلون المعزين بما فطروا عليه من كرم الخلق وأقام سماحة السيد محمد صادق مائدة عشاء سخية في دارته الفخمة في الكاظمية للوفد العاملي

وعدنا يوم الثلاثاء مساء مع شركة الرافدين العراقية التي مدحها لنا غير واحد ممن نثق بأقوالهم لكن لم نكن راضين عنها وقد عادت بنا بطريق الأردن خوفاً من أن تغرز في طريق الشام لكثرة الأمطار والوحول وبلغنا دمشق مساء الأربعاء فتابع قسم منا مسيره لبيروت وصور وقسم بات في منزل صهرنا الحاج مصطفى النحاس حيث وفد بعض كرام الشاميين معزين وكان أشدهم حزناً وأسفاً الخطيب الشهير السيد محمد رشيد مرتضى

وصباح اليوم الثاني أي يوم الاربعاء تابعنا المسير لبيروت فصيداء

وقد أرسل الوفد بكلمة الشكر هذه لاخواننا العراقيين :

يتقدم الوفد الذي رافق جثمان المجتهد الأكبر العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين إلى النجف الأشرف ، بشكره الجزيل لمراجعنا في بيروت وبغداد ، وللعلماء الأعلام وللشعب

العراق وللجاليات الإيرانية والهندية والباكستانية والافغانية والتبتية والجمعيات الإسلامية ورؤساء القبائل وشيوخ الأطراف والهيئات ومواكبها شعبية وطلابية ، ويقدر استقبالهم البر للجثمان وتشييعهم له في مطار بيروت وبغداد وفي الكاظمية والمسيب وكربلاء وخان النص والنجف الاشرف ، وما أبدوه من صدق في الشعور ونبل في العواطف ، ويبتهل إلى الله عز وجل أن يهيء فيه من يسد الثغرة وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وحضرنا الحفلة الاسبوعية في صور التي أقيمت في بهو الكلية الجعفرية ذاك الصرح الفخم الذي أقيم بهمة الراحل العظيم ومال المهاجرين الكرام وذلك يوم الأحد ٢١ جمادى الآخرة ١٣٧٧ - ١٢ كانون الثاني ١٩٥٨ فغص البهو على سعته بالوفود الكثيرة المتراصة كما ضاقت رحبات الكلية كلها عن استيعاب الوافدين وتليت الخطب والقصائد التي تضيق صفحات العرفان عن عدها فضلا عن نشرها وكان للخطابين القيمين اللذين ألقاهما العلامتان الشيخ شفيق يموت رئيس المحكمة الشرعية العليا والدكتور الشيخ مصطفى الرافعي قاضي بيروت الشرعي وقع كبير في نفوس الحاضرين ولو لم يكن المقام مقام حزن لصفقوا لهما كثيراً لما حوياه من الدعوة لتوحيد المسلمين والإلفة والمحبة بينهم إلى غير ذلك من آيات بينات

أما ما ظهر من مكارم وكرم بعض الصوريين نحو الوفود الكثيرة فمما يقصر عنه البيان لا سيما ما ظهر من المحسنين الكرام السادة خليل فرعوني وابراهيم عرب وعباس حلاوي .

مكارمٌ تلك منهم غير محدثة إن المكارم فاعلم شرها البدع

ولا عجب إذا ظهر هذا الشعور الطيب من العامليين والعراقيين فالإمام الراحل بعلمه وفضله بأدبه وتقواه وورعه بجرأته وإخلاصه وكرمه يذكرنا بأجداده الأئمة الاطهار من موسى الكاظم إلى جعفر الصادق إلى علي بن أبي طالب عليهم السلام .

فيا أستاذي الكبير ويا ابن عمي الحبيب ويا أخي في المبدأ والعقيدة ويا صديقي الوفي الصفي في المهمات والملمات لئن عيل صبرك عن فقد شقيقتي قرينتك في العام الماضي ، فقد عيل صبري عن فقدك :

وإن العرفان التي كان الإمام الراحل من أنصارها الأوفياء وأعوانها الاصفياء ومحبيها ومشجعيها الأول تعتذر إلى القراء إن لم تتمكن من إيفائه حقه في هذا العدد لأن القلب متفطر والجراحات لم تندمل والموتور لسان حاله أبلغ من لسان مقاله . حفظ الله أنجاله ، وللأمة والوطن بصرح الجعفرية ومؤلفاته القيمة العزاء .

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإنا لله وإنا إليه راجعون .

العرفان، شباط ١٩٥٨، من صفحة ٤٦٦ إلى صفحة ٤٧٢